مجالس الادب

عند نساء العرب

للسيدة وداد سكاكيني

لا ريب في أن الامة العربيـة من أعرق الامم التي برّزت في أدبها وأحاطتهُ بالعناية والرعاية فكشف عن عصورها الراهية والكابية ، وكان لها ميراثاً خالداً على الايام . ولعلّ الشعر أزوع ما عبر عن خواطر العرب وقرائحهم ، وأبدع ما صوّر طبائعهم ووقائعهم ، فقد سار معهم الى حومات الوغى ورفرف عليهم في ظلال السلم والامان . وقديماً قيل ان الشعر العربي كان في الجاهلية ديوان الأمة ، فيه تجد أنباء أيامها وألوان حياتها وصدى أمجادها ، ففي مجاهل ذلك العهد البعيد الذي ترامت أطرافهُ على الجزيرة العربية كان للأدب حفاوة وجلالة ولأهله عزة ومنعة ، وحيثما أقيمت للأدب قيمته الحقة راجت بضاعة أهله . وكان ثمة مواسم موعودة ومجالس مشهودة يجتمع فيها الناس بعضهم الى بعض فيتناقلون الأشعار ، ويتبادلون الأخبار . وكان سوق عكاظ أكبر مجلس من مجالس الأدب في جاهلية العرب فيهِ استطاعت الخنساء الشاعرة أخت صخر أن تنتقد شعر حسان بن ثابت الأنصاري وان تأخذ عليهِ مزالق في بيتهِ المشهور الذي يقول فيهِ :

لنا الجفنات الغر يلمعنَ في الضحى وأسيافنا من نجدة تقطر الدما .

لقد كان عكاظ — ساعة وقفت فيه الخنساء تجادل حساناً تتسقط في شعره مواقع الزلل والخطل — حافلاً باعجاب الرجال في أدب المرأة شاهداً على مكانتها عندهم . وكأني أرى بالخيال ذلك الحشد الحافل الذي جلس في بهرته النابغة الذبياني على صفّة له في عكاظ وعقدت فوقه راية الشعر على قبة حمراء من أدم ، ووقفت الخنساء بين يديه تنتقد الرجال وتتصدى للأحكام الأدبية قالت : يا حسان ، لو قلت الجفان لاحسنت لأن الجفان أكثر عدداً من الجفنات وقلت يلمعنَ ولو قلت يبرقنَ . وقلت في الضحى ولو قلت في الدجى . وعددت أسيافاً ولم تعد سيوفاً . وجعلت الدم يقطر ولم تجعلهُ سيالاً . فكان بيتك الذي تفاخر فيهِ وتنافر أقل شأناً وأضعف معنى . فخجل حسان وسحب وراءه ذيول الخيبة في حضرة شاعرة ناقدة شهد لها الفرزدق وأنداده بأنها بذت بشعرها فحول الشعراء

ولو عدنا الى جاهلية أعمق ، الى عهد امرىء القيس ، لوجدنا المرأة التي يسمونها أم جندب ويقول فيها امرؤ القيس :

خليلي مرّا بي على أم جندب لنقضي لبانات الفؤاد المعذب

وأم جندب هذه كان لها مع امرىء القيس مواقف فيها نقد وتقرير، وفيها بعد نظر وتفكير ، كانت تصغي لشعر شاعرها وتكشف عن رأيها فيه بجرأة وصراحة ، ولو سلمت كل نصوص التاريخ الجاهلي ووصلت الى ايدينا لوجدنا فيها اخباراً عن أم جندب التي كان يمر بها الملك الضليل ليقضي عندها لبانات فؤاده المعذب . ولقد تزوجها حين هرب من المنذر بن ماء السماء والتجأ الى جبل طيء « أجأ وسلمى » فأجاره اولئك القوم وزوجوه بها ، وإنهُ لأتيه ذات صباح علقمة التميمي وهو جالم في خيمته وجنبه أم جندب فيتذاكران الشعر ويتنافران فيهِ ثم ينحاكمان الى ام جندب بعد ان ينشد امرؤ القيس قصيدته التي يقول فيها

فإنكما إن تنظراني ساعة من الدهر تنفعني لدى أم جندب
ألم تريا كلما جئت زائراً وجدت بها طيباً ولم تتطيب

ويقول فيها: فانك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

حتى اذا انتهى امرؤ القيس من قصيدته التي يشيد فيها بمحاسن أم جندب أخذ علقمة ينشد أبياتاً من شعره فهزها السرور والإعجاب، وفضلته على زوجها غير مخدوعة بشعره فيها، فغضب عليها امرؤ القيس وكان بينهما شقاق وفراق، فطلقها انتقاماً منها وتزوجها علقمة من بعده

فياسبحان الله عهداً كان على جاهليته قد أنجب من النساء حاكمتين في الأدب حازمتين في نقده ، هما أم جندب والخنساء اللتان كانتا من أوليات النساء اللاتي أوتينَ على الفطرة حصافة العقل وحضور البديهة وصحة الأحكام

وينحدر بنا الزمان فنجد من النساء شاعرات وخطيبات، يقلنَ الشعر عفو الخاطر وعلى سجية الإلهام ، ويرتجلنَ الكلام بحضرة الخلفاء والامراء فيكون فيه فصل الخطاب ، كما وقع للوافدات على معاوية في مجلسه الرهيب اذ كنَّ يصدمنهُ بالحجة الدامغة ، ويقرعنَ سمعهُ الرهيف بحرية القول وروعة البيان مفضلات خصومه عليه ، فيفتح لهن هذا الأموي العظيم صدره الحليم ويخرجنَ من عنده منقلات بالعطايا والهبات

هذه اللمحة عجلى ببعض مجالس الأدب عند نساء العرب ، بل هي سوانح وهنيهات كان للمرأة فيها لحظات انتقاد وبديهة أحكام ، أما المجالس الكبرى التي لمعت في سمائها كواكب الأديبات فكان أسطعها في عهد الأمويين الذين أينع الأدب في آفاقهم ودنت قطوفه في دنياهم ، على ان أشهر اللواتي اختصهنَّ الله بعوامل الشعر والجمال وبديهة النقد والنكتة هنَّ من البرزات الشريفات كعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين وعمرة الجعدية

وثريا بنت علي وغيرهنَّ من نساء قريش المترفات الظريفات

هؤلاء وسواهنَّ خلعنَ على الحياة الاجتماعية طرافة ومرحاً ، وشاركنَ الرجال في تطور الأدب ورواج سوقه ونشره بين الناس . فلقد كان لهنَّ مجالس يفد اليها الشعراء ليتناشدوا القريض فيفاضلنَ بينهم ويشرحنَ فنون شعرهم ودقائق معانيها ثم يجزلنَ لهم الهدايا والجوائز بيد ان أحفل مجلس نسائي تألقت فيه قرائح الشعراء المطبوعين ولمعت عبقرياتهم هو مجلس السيدة سكينة بنت الحسين زعيمة الساجلات الشعرية والمطارحات الأدبية في زهوة أيامها وكأني بها وقد جلست في بهوها الرهيب متكئة على وتير الحشايا تحف بها الصواحب والوصائف وخلفها جارية زنجية تروّح عنها حر العشايا بمروحة من ريش النعام ، واذا أمامها على نمارق مصفوفة أشعر من قال شعراً في عصر الامويين الذي فاضت فيه الخيرات على أهل الالسنة والاصوات وهم جرير والفرزدق وكثير عزّة وجميل بثينة ونصيب، جاءوا عميدة المجلس بشعرهم وكل منهم يعني نفسه برضاها عنهُ وإعجابها بقريضه فقالت السيدة سكينة للفرزدق كيف تقول :

فلما استوت رجلاي في الارض قالتا أحيٌّ يرجى أم قتيلٌ نغادره
فقلت ارفعا الآمراس لا يشعروا بنا وأقبلت في الحجاز ليل أبادره
أبادر بوابين قد وكلا بنا وأحمر من ساج تبص مسامره

ماذا حملك على افشاء سرها وسرك، هلاَّ سترت عليها وعليك ، ثم التفتت سكينة الى جرير وقالت لهُ أأنت القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

قال نعم . قالت : أفلا أخذت بيدها وأنت عفيف وفيك ضعف ؟ ثم نقدت غيره حتى جاء دور جميل فأعجبت بقوله :

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة بوادي القرى اني اذن لسعيد
لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل عندهنَّ شهيد

ثم منحتهم من الجوائز الغالية ما لم يحلموا بمثله من الخلفاء الذين كانوا يحبون الشعراء ويحدبون عليهم ، فكانوا يتقبلون حكمها الذي لا يرد بقبول حسن وهي العنيفة في نقدها ، المزاحة في طبعها ، النزاعة الى التهكم والتندر ، فكان مجلسها سبيلاً لتنافسهم في الحظوة برضاها ونوالها ليكسبوا الصيت الحميد والمثوبة الراجحة

ولم يقتصر مجلس السيدة سكينة على رعاية الأدب وانما كانت فيه عناية بالطرب، وفي هذا المجلس دقت مزاهر ونقرت أعراد وكان يؤثر فيه صوت على صوت ولحن على لحن

وهكذا كانت عائشة بنت طلحة حفيدة أبي بكر الصديق تكرم الشعراء وتستمع لما

يقولون فتقارن بين شاعر وشاعر وتوازن بين قصيد وقصيد ، ولئن تسرب الشك الى هذه الأخبار المتواترة عن تلك المجالس النسائية وعدّها بعضهم من الكبائر التي ترفعت عنها الشريفات المحصنات تحرجاً من جلوسهنّ الى الشعراء ورواتهم لما لهنّ من العلات بال الرسول وصحبه الأكرمين فان الأخذ بصحة هذه الاخبار تكريمٌ مضاعفٌ لهنّ فان زعيمة عظيمة مثل سكينة بنت الحسين يأتيها الشعراء على عصمة وحشمة محتكمين اليها فتنقد أشعارهم وتكرمهم لما يزيدها شرفاً في الأدب على شرف في النسب . واذا أقبل عصر بني العباس ومرّ على الناس بخيله ورجله ، فرسانه على الصافنات الجياد يدكون الحصون ويفتحون الفتح الجديد أيام السفاح والمنصور ، فلا يكون في الفترة الاولى منهُ ذكر للأدب النسوي حتى اذا أغمدت السيوف وحبست الخيول ، قامت ببغداد على أرض العراق ميادة بالبذخ والترف طالعة من مقاصيرها حسان الجواري والقيان . فكان منهنّ المنادمات والمغنيات ، ولم يكن من حرائر ذلك العصر شبيهات لأديبات العصر الاموي اللواتي ساهمن في تجديد الأدب ورعايته ، لكأ هنالك على العدوة اليسرى من حوض البحر المتوسط حيث رقت الطبيعة ورقت ضفاف وادي الكبير والوادي الصغير ، قام ملك للعرب رفيع العماد هو ملك الأندلس التي تسامى خيال أهلها ، وعاجت من فنونهم أزاهير الوشحات عاطرة بريّا الشاعرين ابن هانيء ولسان الدين ، وقد كانت قرطبة جنة الدنيا في ذلك العهد السعيد ، فيها أثمرت عقول النساء وانحسرت مواهبهم عن أرق الاشعار وأبدع الخطوط ، كما يروي ابن فياض في تاريخه عن أخبار قرطبة — التي ظهر فيها مائة وسبعون امرأة كلهنّ يكتبن المصاحف الشريفة بالخط الكوفي في شأن الأديبات والشاعرات ، الصداحات كالعنادل بشعر أنبتتهُ غرناطة وبلنسية وقرطبة فيه من فن الحمراء والزهراء كل خالب أخاذ

أما أعظم مجلس أدبي قام في قرطبة فهو مجلس ولادة بنت المستكفي بالله أحد الخلفاء الامويين في الاندلس كان يختلف اليه أكابر الامراء والوزراء ويسارع اليه الشعراء والأدباء فتحاورهم صاحبة المجلس وتناظرهم وتأخذ على آثارهم بالمعارضة فتنقدها بانصاف واقتدار وتؤثر شاعراً على شاعر ومناظراً على مناظر ، وكانت ولادة شاعرة وراوية لمنظوم العرب ، وتحت قباب مجلسها بزغ نجم الشاعر ابن زيدون وتفتح نبوغه . وكان لولادة مع هذا الشاعر الذي جعل للاندلس مقاماً معلوماً في ديوان العرب علائق وثقى فحسده الوزير ابن عبدوس وسجنه وصادر أمواله فقال ابن زيدون بولادة قصيدته الخالدة :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ونابَ عن طيب لقيانا تجافينا

في هذا المجلس الأدبي لقي الشاعر مصرعه وكثر حساده وشانئوه لأن ولادة كانت به محتفية وله مقرّبة ، وكان نصيبه من حساده أدهى وأمر من نصيب عمر بن أبي ربيعة الذي

كانت تكرمه السيدة مكينة حتى أثارت عليه الحساد واكثرت عليه الشانئين . فان ابن زيدون كتب رسالة على لسان ولادة سماها الادباء بالرسالة الهزلية لانهُ جعلها تهكماً بالوزير الحاسد خصمه ومزاحمه في مجلس ولادة ؛ هذا المجلس الذي توافرت فيهِ الرفاهية والنعمى وشاع فيه "الفنون والبهجة، وكأني أتصور ولادة في مجلسها الانيق تحف بها الاماء ويدخل عليها العبيد ، بأيديهم الصواني والصحاف فيطاف بها على الادباء والجلساء المقربين ليسيغوا برد الشراب وعذبه ويأكلوا من سائغ الطعام ورطبه ، فاذا انتهوا من ذلك تناشدوا الاشعار وتداولوا الاخبار وولادة تميل بالسمع نحو شاعر عن يمين ثم تنقلب باللحاظ نحو راوٍ عن شمال، ومجامر البخور ينصاعد منها عبق العنبر فيعقد له دخان رقيق في سماء المكان حتى ساعة متأخرة من سمت الظهيرة أو هدأة عميقة من ليلة قراء.لم يكن مجلس ولادة خيالاً مرَّ في دنيا الادب ولو لم ينجب غير ابن زيدون ورسالته الهزلية لكفاه تخليداً على تراخي الزمان

ولقد يمتد بي سبيل البحث، اذا استوفيت الكلام على مجالس الادب النسوي في بلاد الاندلس ، فلأعد الآن من خاليات الأيام ، من جاهلية العرب وعصور الاسلام وعهود الاندلس الى عصرنا الحاضر فأعرض مجلساً للادب قام منذ ثلاثين عاماً على ارض الكنانة ، في دار من دارات العبقرية في القاهرة العامرة ، هنالك كانت تتصدَّر فيهِ الجلوس لعظماء الرجال أديبة نابغة هوى نجمها منذ عهد قريب ، وغاب عن عالم الادب محياها الوضيء الذي تلألأ بالعبقرية والعذوبة نحواً من ربع قرن ، هذه الأديبة هي الآنسة مي التي كانت فلتة من فلتات العرب وأفذاذهم في العصر الحديث ارسلها لبنان الى مصر لتكون الحجة على الرجال بعذب المقال وسحر البيان ، لقد طلعت على مصر في مطلع فتوتها فتفتحت عبقريتها الغضة على جمال لبنان وتفجر نبوغها عند سفوح الاهرام فجنت من ثمرات الثقافتين العربية والغربية ما جعلها آية في سفر المرأة الشرقية والعجوبة في مواهبها المنوعة ، وكان لها من توجيه ابيها الصحافي وصحبة الادباء ما حفزها الى الظهور بمجلس يعيد الى الاذهان ذكرى المجالس النسائية في عصور الحجاز والعراق والاندلس ، اما هذا المجلس الحافل بأرباب الشعر والأدب فكان يفتح ابوابه لمرتاديه كل يوم ثلاثاء فيأتيه الأدباء افواجاً افواجاً ممن ارخى الموت سدوله على وجوههم كالشعراء الملهمين اسماعيل صبري وولي الدين يكن وحافظ ابراهيم رحمهم الله ، ومن الأحياء المعاصرين اعلام الأدب والصحافة خليل مطران ، وطه حسين ، وأحمد لطفي السيد ، والعقاد وغيرهم من حبارة العقول والأقلام ، فاذا فات احدهم مجلسٌ من مجالس مي أسف وندم لأنه يعلم ان كل ساعة من سواعيه هي وحي للاديب الموهوب ووعي شامل لاشتات المعرفة والثقافة

وقد اتفق ان المرحوم اسماعيل صبري كان بعيداً عن القاهرة في يوم ثلاثاء فأرسل برقية للآنسة ميّ يأسف لغيابه عن مجلسها فيها هذان البيتان :

روحي على بعض دور الحيّ حائمة كطائر الطير حواماً على الماء
إن لم امتع بميّ ناظري غداً لا كان ضحك يا يوم الثلاثاء

وما احسب الشاعر كان مغبوناً في اجرة البرقية ، وقد فاته ما هو اعز لديه منها ، فاته التمتع بأطايب الحديث عند نابغة الجيل

ومن قبل ميّ ومجلسها في وادي النيل ظهر مجلس رفيع لاقطاب الرأي والادب في بهو الأديبة النبيلة الاميرة نازلي فاضل التي كان يحفل مجلسها الوقور بأمثال الامام المصلح الشيخ محمد عبده ونصير المرأة قاسم أمين وسواهما من عظماء الرجال وصفوة الأدباء

وفي دارات غسان وامية قام مجلس للادب في حي كريم من احياء دمشق هو مجلس ادبية الشام الآنسة ماري عجمي ، صاحبة العروس المحتجبة ، لقد كان مجلسها منذ سنين حافلاً برجال الرابطة الادبية في هذا البلد الطيب وكان منهم المرحوم احمد شاكر الكرمي الناقد الاديب والاستاذ خليل مردم بك الشاعر الكبير وغيرهما من حملة الاقلام الموهوبين. في مجلسها كان يدور الحوار ويطول النقاش حول مشكلات الادب ونقده ، ولو لم تستأثر مشاغل الصحافة ثم حرفة التعليم بأوقات الآنسة ماري عجمي في ذلك الحين وبعده لكان مجلسها أحفى بالادب وأهله

وهكذا اتصلت في هذه المجالس حلقات السلسلة الادبية التي صاغتها اديبات العرب من غابر الدهر الى حاضره ، كانت سلسلة اغلى من الذهب الذي تزين به النساء النحور والمعاصم بل هي حلى لا تبلى . هي في آذان الزمان اسمى من الاقراط البعيدة المهاوي المتدلية من آذان الحسان . ولئن طوى تاريخ الادب سجل هذه المجالس النسائية ، فان في الأمل المعقود والرجاء المنشود أن تقام مجالس طريفة لأديبات معاصرات فتكون الحلقة الجديدة في هذه السلسلة الذهبية الخالدة التي أمسكت بأولها أم جندب زوجة امرىء القيس وأخذت بطرفها الاخير فقيدة الادب ماري زيادة والآنسة ماري عجمي مدّ الله في عمرها

واذا تبجح المكابرون وجعلوا من مجالس الادب النسوي في الغرب بواعث نهضة شاملة فلا ينبغي أن ينتاسوا ان مجالس الأدب عند نساء العرب كانت السباقة في الدهر الى الظهور والى التأثير في الحياة الاجتماعية والأدبية، فان مجلس سكينة ومجلس ولادة اقدم من اول مجلس لأديبات الغرب ، ومجالس هؤلاء لم تقم إلاّ في عصور متأخرة كما يشهد التاريخ